على ذكر الربيع

شجرة المشمش

بقلم الأديب حسين شوقي

عند ما فتحتُ صباح اليوم نافذتي التي تطلُّ على الحديقة ، تولاّني العجب حينما شاهدتُ شجرة المشمش في ثوب زاهٍ قشيب ، وكانت بالأمس عارية يابسة . . . . حقاً ! ما أبهى شجرة المشمش في ثوبها الأبيض المزهر ، كأنها فتاة تتأهب لحفلة زفافها ! من ذا الذي أتى بهذه المعجزة ؟ من ؟ هو أنت أيها الربيع ، يا ألطف السحرة وأمهرهم ؟

ولكن ظهور الربيع فجأة أعاد إلى قلبي ذكريات عزيزة ، وإن تكن حزينة مؤلمة . .

إن قدوم هذا الربيع ذكرني ربيع آخر قضيته في باريس ، حينما كنت طالباً بها . .

أذكر أنني ذهبت يوماً إلى حديقة « اللكسمبور[1] » الغناء للمذاكرة في الهدوء والسكينة ، قبل الامتحان بأسابيع ، وبيدي كتاب « القانون المدني » للأستاذ « بلانيول » ، ولكن لم تكن عندي رغبة في المذاكرة هذا اليوم ، لأن الطقس كان بديعاً ؛ فالشمس أخذت تلمع في الأفق بعد احتجابها عنا طويلاً ، والجو أخذ يعبق برائحة الربيع الزكية . . لشدّما كان جميلاً منظر جند الربيع ، وهي تتسلّق الأشجار في أثوابها الخضراء ، وقد أخذت الطير تهتف وتصفق من فوق أغصانها لذلك الجيش الحليف الصديق ، الذي أراحها من الشتاء البغيض . .

كنتُ أفتح كتابي لأقرأ فيه صفحة ثم أعود فأهمله لأتفرغ للنظر إلى التغيرات العجيبة التي تحدث في الطبيعة حولي . . . وكنتُ أغمض عينيّ ، ثم أستنشق — ملء الرئتين — عبق الربيع في نشوة عظيمة . . حقاً ! لقد كانت بغيضة إلى نفسي تلك المذاكرة في هذا اليوم ! مالي و « لبلانيول » ؟ مالي وللعقود وتسجيلها ؟ مالي وللحجز والاسترداد ؟ والطبيعة تنجلي أمامي ؟

وبينا أنا على هذه الحال ، أفتح الكتاب لحظة لأهمله لحظات ، إذ برنّ من الخلف ضحك فتاة لم أنتبه إلى وجودها من قبل ، وإذ هي تقبل فأسمعها تقول : إنك على حق ! إنه لعذاب للنفس المذاكرة في مثل هذا الطقس البديع ! أنا أيضاً لم أطق المذاكرة . . ثم أشارت إلى كتاب ألقته على الأرض . . وفي دقائق معدودة أصبحنا صديقين حميمين ، وكأننا تعارفنا من زمان طويل ، وكأن حديثنا هذا تتمة حديث قديم . . حقاً ! ما أمهرك أيها الحب في إحداث أمثال هذه المعجزات !

تركنا مقاعدنا وأخذنا نطوف جوانب الحديقة لنعرف ما إذا كانت جنود الربيع قد احتلت أنحاءها الأخرى

ثم دعوتها إلى تناول العشاء معي ، فقبلت الدعوة دون تردد . . والعجيب أني وجدت من الطبيعي أن أدعوها إلى تناول العشاء ، كما كان عجيباً أن تجد هي أيضاً من الطبيعي أن تتقبل هذه الدعوة . . . ما أعجب تصرفاتك أيها الحب ! وفي أثناء العشاء التهمت صديقتي بالنظرات ، معجباً كل الاعجاب بعيونها الكستنائية الصافية التي قامت على حراستها أهداب براقة فتية ، وأعجبت بقوامها الرشيق ، وثوبها البسيط الأنيق . . ثم صرنا نتلاقى في كل يوم . . ولم يشأ أن يسأل أحدنا الآخر عن ماضيه . . ما شأن الماضي بنا ؟ ما شأن الأشياء التي ماتت وانقرضت ؟ لم نعذب أنفسنا بأوهام وأشباح ؟ كذلك لم نشأ أن نفكر في المستقبل ، لأن المستقبل لن يكون خالياً من الخطر والغموض . . أليس الفراق يراقبنا عن كثب ؟ ألست طالباً أجنبياً تنتهي دراسته بعد أسابيع ثم يعود إلى وطنه ؟ ما لنا وللمستقبل إذا كنا ننعم بالسعادة والحب في الحاضر ؟

قضينا أياماً لذيذة سعيدة مرّت كعادتها سراعاً . . . أي صديقتي العزيزة ! إني لن أنسى وفاءك ما حييت ! كم كنت تحثينني على المذاكرة عند اقتراب الامتحان ، ونجاحي معناه الافتراق ، معناه عودتي الى الوطن . . ولو رسبت لطالت إقامتي معك . . ولكنك آثرت نفسي على نفسك ، وقدمت مصلحتي على مصلحتك !

(١) مقر مجلس الشيوخ الفرنسي ، وحديقته متنزه عمومي للباريسيين

أى صديقتى المحبوبة ! إن قلبى يتفطر حزناً كلما تذكرت يوم نجاحى ، وقد جئت الى الكلية أعرف النتيجة ، فلما عرفت نجاحى طوقتنى بذراعيك وقبلتنى أمام الجميع بلا مبالاة من شدة الفرح ، بينما لمحت دمعة تتحدر من عينك المحبوبة للفراق المرتقب !..

أى صديقتى العزيزة ! إنى ما زلت أراك وأنت ترافقيننى فى مسيرى لقضاء بعض حاجاتى قبل الرحيل ، وقد تظاهرت بالغبطة والسرور كى لا تدخلى علىّ الغم فى الأيام القليلة التى سأقضيها معك فى باريس ! كنت فرحة وأنت تنتقين لى الهدايا التى سوف أقدمها لدى عودتى الى أفراد أسرتى فى مصر ! أى صديقتى العزيزة ! إنى ما زلت أراك تكفكفين دموعك خلسة حينما حجزنا تذكرة عودتى لدى إحدى شركات الملاحة ! إنى مازلت أذكر عشاءنا منفردين فى الفندق عشية الرحيل ... لقد بدا عليك الحزن فى أجلى مظاهره ، لأنه لم يعد بعد فى طاقة قلبك الرقيق الصغير أن يتحمل تلك « الكوميديا » . . « كوميديا الفرح » والسرور التى كان يحياها فى أيامنا الأخيرة . .

أى صديقتى المحبوبة ! كم كان مؤلماً يوم الفراق ! لقد رجوتك ألا تذهبى الى المحطة لأن الوداع فى المحطات مؤثر من نفسه ، ولكنك أصررت على الحضور زاعمة أنه فى طاقتك أن تتجملى . . ثم حضرت . . وكنت فعلاً شجاعة فى أول الأمر فقد أخذت تضحكين ، كما جعلت توصيننى بأن أبعث اليك رسالة من كل مكان أحله فى طريقى . . . ولكن عندما علا صفير القطار المزعج المؤذن بالرحيل ، ضاعت شجاعتك فأخذت تبكين بكاء مراً ، ولم يكن فى طاقتى أن أخفف عنك لأنى كنت فى مثل حالك من التأثر . . .

ما أطيب قلب تلك السيدة العجوز التى جلست أمامى فى العربة ، وقد أخذت تبكى لبكائنا وهى تتمتم : يا لله ! ما أقسى الحياة !

أى صديقتى المحبوبة ! إذا كان حبنا لم يعش طويلاً فإن عزاءنا فيه أنه انقضى فى أوج شبابه وريعانه !

وأنت يا شجرة المشمش ! ذكرينى فى مثل هذا اليوم من كل عام بهذه الذكريات العزيزة ، لأن القلب البشرى ضعيف قد ينسى أحباءه يوما ما !

كرمة ابن هانئ — حسين شوقى